بقلم: د. يعقوب يوسف الغنيم

أثارت إعجاب الشاعر الكبير فهد بورسلي وغنت له كثيراً مما كتبه لها

الفنانة عودة المهنا.. ذكرى لا تغيب

كانت أعجوبة في عالم اللحن والغناء والإيقاع وأمتعت الناس بأدائها البديع

- أبدعت في مجالها الفني مع فرقتها وشاركت في أعمال مسرحية وظهرت في فيلم تسجيلي
- عواد سالم كان الرجل الوحيد في فرقتها وكانت له أعمال خاصة به على صلة بالتراث الغنائي
- شكّلت قامة في التراث الشعبي لوطنها ومثالاً لا يُضاهى في مجال الخير والإنسانية
- مُوثِّق الغناء الكويتي القديم الأستاذ أحمد علي أمدّته الفنانة عودة بـ 18 إيقاعاً على «الطار»

الفنانة القديرة عودة المهنا

عواد سالم

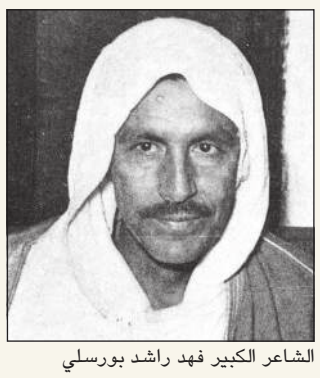

الشاعر الكبير فهد راشد بورسلي

الفنانة عودة المهنا خلال إحدى الفعاليات الخاصة بالتراث الشعبي الكويتي

عشت عصرا لم يشهد وسائل الترفيه على الصورة التي نراها في وقتنا الحاضر، كانت الحياة فيه أقرب إلى الصمت لولا أننا قد سعدنا بوجود عدد من الذين أنعشوا الأجواء مـن حولنا، وأمدوا حياتنا بنوع من الرفاهية عن طريق الفنون الغنائية المختلفة التي كنا نطرب لها، مع ما اتصل بها من حركات إيقاعية، وكان هؤلاء الذين أثاروا فينا الأنس باستماعنا إليهم، وبمشاهدة حركاتهم أثناء قيامهم بتقديم فنونهم عنصرا من عناصر سعادتنا آنذاك، فكان ذلك سببا من أسباب عدم إحساسنا بروتين الحياة المزعج، وإن كانت الأمور ـ آنذاك ـ أيسـر مما هي عليه الآن، إذ من المعلوم أن لكل زمن إيقاعه، وما به من خير أو شر.

أما الآن فأنا في سبيلي إلى عرض إحدى ذكرياتي المهمة التي أسعدني زماني بها، وكان بها ما يؤنسني، ويفتح لي مجال التفاؤل والانشراح.

ولكـن ما ينبغي أن أبدأ به هنـا هو هذه اللمحة العاجلة عن بعض الفنون الشـعبية التي كانت الفرق الفنية النسـائية تقدمها للجمهور الكويتي في الفترة التي أشـرت إليها. فلقد كانت فنونا متنوعة يترقبها الناس جميعا، صغارا وكبارا، وكانت للفنانات الشعبيات جولات في مناسبات مختلفة في الأحياء وبين السكان حيث يقدمن أنواعـا مختلفة من فنونهن المحببة إلى النفوس، ومنها:

(أ) الجلاعات: في بداية شهر شعبان تطوف جماعات من الفرق الشعبية النسائية على المنازل، حيث تقدم كل فرقة نشيدا معروفا، يدل على طلب المعونة بمناسبة قدوم شهر رمضان. والتنبيه إلى قدوم الشهر الكريم. ونتيجة لذلك فإنهن يحصلن على بعض النقود وبعض المواد الغذائية ومنها الحبوب بالذات، ثم يقسم ذلك بين أفراد الفرقة. ويطلق على هذا العمل ـ أيضا ـ طالبين الكريم، لأن الأغنية التي يدور عليها عملهن تقول:

طالبـين الكـريم
وماشـين ابمـداه
يا عِل عمره طويل
ويـا الله يـا كـريم

وهكذا...

(ب) العايدوه: الفرقة المذكورة في (طالبين الكريم) لها جولات أخرى في شهر ذي الحجة، وهذا الشهر فيه مناسبتان هما عيد الأضحى المبارك، وعودة الحجاج من حجهم، أيام رحلات الإبل إلى هناك.

ويسـمى هذا العمل: العايدوه، بمعنى أننا ـ أيها الفرقة ـ نعود إليكم مـرة أخرى مقدمين هذا اللحن القديم والكلام الذي لا يعرف قائله بسبب القدم، طالبين المعونة بهذه المناسبة التي نطرق فيها أبوابكم قائلين:

أو يـا العايـدوه
أو يـا العايـدوه
جينـاك يا البيت
الكبير العـالي
أو جـدام بيتـك
مجلس وارجال

وفي ذلك ـ أيضا ـ ما يدل على الحج، وهو:

وجَانا مـن الحجاج
اخطوط امشـعشعه
قـرا الهـم ولـدك
وأمّـه تسمعـه

أما أغاني الأعراس، فهي متنوعة بحسب الترتيبات التي كان الناس حريصـين على اتباعها في حفلاتهم المماثلة، وفيها يجري غناء الأغاني المتنوعة، بحسـب كل خطوة من خطوات الاحتفال القائم بهذه المناسبة المهمة في حياة الأسر الكويتية، وقد يكون من الإطالة في القول أن نذكر كل ما كان يدور في هذه المناسبات السعيدة، ولذا فإن الإشارة تكفي عن الإطالة.

ولكننا لا ننسى أغنية تغنيها الفرقة النسائية للعريس (المعرس)، وهي التي جاء فيها قولهن:

يا معريس عين الله تراك
القمر والنجوم تمشى وراك

ولهذا النشـيد نص مختلف غنـاه أحد المطربين المتأخرين. وكانت من أشـهر ما غنته هذه الفرق في الأعراس ما يتردد عند دخول المعرس إلى قفص الزوجية، حين يتردد على ألسنة الطقاقات وعلى رأسهن عودة المهنا:

عليك اسعيد عليك اسعيد
عليك أسعيد وامبارك
عليك أسعيد وامبارك

□ □ □

وكان من أغاني المناسبات ما تقدمه الفرق النسائية الفنية في موسـم الربيع حين يخرج الناس عندنا في رحلاتهم التي يقضونها في خارج العاصمة بمناسبة حلول هذا الفصل الجميل من فصول السنة، وهؤلاء يخرجون من نظام حياتهم المعتاد في هذا الوقت طلبا للاستجمام، وحبا في تغيير نمط معيشتهم، ففي ليالي هذه الرحلات الخلوية تجري احتفالات غنائية متعددة منها ما يقوله الأهالي فيما بينهم، ومنها ما تقدمه الفرق النسائية بناء على اتفاقات تعقدها بعض الأسر. وكانت الأغاني التي تقدم في هذه السهرات متنوعة، فمنها ما هو قديم، ومنها ما هو جديد قالها شعراء معاصرون لتلك الفترة، وبعضه يكون وليد الساعة. كما كان يفعل الشاعر الشعبي الكبير فهد راشد بورسلي الذي غنت له الفنانة عودة المهنا عددا كبيرا مما كتبه لها من أغان باتت مشهورة إلى يومنا هذا. ولقد كان غزير الإنتاج في هذا المجال، وله مجموعة من الأغاني طبعت في القاهرة سنة 1952م، كان عنوانها: «السامريات والفنون» وكلها مما غنته تلك الفرق التي أشرنا إليها.

عودة المهنا. وقد قال عنها بعض الأبيات فغنتها، وكانت على لحن (الفن) ويقول فيها:

قالـت الزينـة وهـي بالفـن
تشـهد لهـا كل فنانـة
الطـار فـي جفهـا ليحـن
إيذكّـر القلـب خلانـه
راحـن ليـال الطـرب واقفـن
يـوم الطـرب يسـحب أردانـه
شـيلوا عسـى ما يخيـب الظن
بنروجـع الفـن بألحانـه
لا يقضـي العمـر نـوح اوون
بنخلـي النفـس طربانـه
الطـار والفـن ليمـن عـن
يكمـل ابأهلـه أو خلانـه
حنـا هلـه والجفـوف ادمـن
خلـوه يرجـس أبميدانـه

ومما قاله هذا الشاعر في مناسبة من تلك المناسبات الربيعية، وغنته عودة المهنا أغنية لاتزال تتردد على الألسنة، وقد جرى غناؤها ـ أصلا ـ على لحن: السامري، وهي قوله:

أمـس الاثنين الضحى
شـفت لـي غـرو عجيب
تحسـب أنهـا حققت
بـي ونـا ما اشـوفها

وفيها إشارة إلى أنه قد أصيب بمحبته لها. واعتبر ما أصابه علة قد تمكنت به، لا يشفيها طبيب. ويصفها بأنها: علة الفنطاس لأنه شاهد تلك الفتاة هناك في تلك القرية الكويتية الجميلة التي كان يذهب إليها عشاق الربيع. هذا، ومما ينبغي أن يذكر هذه الأبيات التي قالها أحد المعجبين بعودة المهنا وكان قد حضر حفلة لها:

البارحة القلب في غاية ما تمنى
وسـط بسـتان وابني سـفيره
مـا حـلا الطار فـي جـف المهنا
جـف عـوده إذا قامـت تشـيله

ولم تكـن عودة المهنا مكتفية بالنشـاط المألوف لفرقتها، وفق ما أشرنا إليه آنفا، فلقد كانت لها مشاركات ملحوظة في مجالات أخرى من مجالات الفن. إذ بدأت في سنة 1955م بالخروج عن نطاقها القديم فشاركت على المسـرح عندما قدم الأستاذ محمد النشمي من إخراجه مسـرحية: «على أمه نذر». كما شاركت بعد ذلك بفترة في مرحيتين من إخراج الفنان عبدالرحمن الضويحي، هما: مطر صيف، وسكانه مرته.

وظهرت في فيلم تسـجيلي عـن تقاليد وعادات الـزواج في الكويت. وغنت ـ لأول مرة ـ في سـنة 1960م مع فرقتها في أول كورال من نوعه من الفنان شادي الخليج في أغانيه:

ـ لي خليل حسين
ـ فرحة العودة
ـ حبيبي راح

فلم تكن في حياتها الفنية، وممارسـتها لما دأبت على القيام به فنيا مقتصرة على نوع واحد من أنواع العمل الفني. وكانت فرقـة الفنانة عودة المهنا فرقة فنية نسائية كما ذكرنا، ولكنها في الوقت نفسه كانت تضم رجلا كان هو الوحيد الذي يشارك إحدى الفرق الخاصة بالنساء، وكان يحضر كل حفلات هذه الفرقة التي ارتبط بها إلى آخر رمق من حياته.

هذا الرجل الفنان هو المرحوم: عواد سـالم فرج المشهور باسم: عواد سالم، الذي ولد في سنة 1900م وتوفي في سـنة 1969م. كان ـ كما ذكرنا ـ مشاركا لفرقة عودة المهنـا في اكثر أعمالها. وكانت له أعمال خاصـة به كلها ذات صلة بالتـراث الغنائي الكويتي فكنا نستمع إليه وهو يغني الألوان الكويتية البحرية والأغاني الأخرى كالخماري والقادري والسـامري، وغير ذلك من الفنون. وله تسجيلات على اسطوانات منها أغنيـة دينية فيها ذكر النبي محمد ﷺ، وأغنية من الفن الخماري اشتهر بها وهي: يا حمود عزّوني. وكان مطلعها:

يـا حمـود عزوني عقـب فرقاه
اللـي سـبا حالـي وخلانـي
أقـول عزونـي انامـا انسـاه
لـو كان عظمـي بالثـرى فاني

كان رجلا عزيز النفس، سمح الطباع، وهب حياته كلها للفن. ولا يزال ذكره ساريا على ألسنة المعجبين بفنه.

ولكنها كانت تحرص على أن تطرق كل أبواب الفن وتشارك في كل نشاط يستدعي مشاركتها، حتى ولو كان جديـدا على الأعمال التي تقوم بها منذ بدأت في هذا السبيل.

□ □ □

كنا ـ نحن الصغار ـ نستمع إلى ما يتردد من أغان وأهازيج تتردد في القرى وفي المدينة، ونسعد بذلك. ولقد ارتضينا لفرط ما اتصل بيننا ذكر الفنانة عودة المهنـا أن نعتبرها أما لنا، فلا ندعوها إلا بهذا اللفظ. ولقد كنا نحس بمدى الحنان الذي يتدفق منها على الصغار جميعا، ونلاحـظ محبتها لنا ولأمثالنا أينما ذهبت، ولم تكن هذه التسـمية كثيرة عليها. وكبرنا ونحن نتابع نشـاطها في مجالين من مجالات حياتنا الكويتية، كان المجال الأول منها متصلا بالتراث الشعبي لوطننا، فهي تمثله أفضل تمثيل. وتقدمه بأفضل مما لا نسمعه من كثير من غيرها، وأما المجال الثاني فهو مجال الخير والإنسانية، وقد كانت تبذل من جهدها ومما تملك في هذا المجال بلا حسـاب. وقد اعتبرت نفسها مسـؤولة عن كل محتاج سواء أكانت حاجته إلى المـال أم كانت إلى أمر يريد الحصول عليه دون أن يتمكن منه. وقد عرفت بين الناس بهذين الأمرين، وذكرت بهما إلى اليوم رغم مرور زمن على وفاتها، رحمها الله تعالى. وفي تفصيل هذا الذي أشرنا إليه نعرض للمجال الأول وهو مجال الفن الذي عرفت به أولا، فلقد شهد لها بذلك فنان عربي بارز، كان مهتما بالأغاني الكويتية القديمة وموسيقاها، وهو الأستاذ أحمد علي، الذي كان يعمل ضمن فرقة إذاعة الكويت الموسيقية، ثم صار مسؤولا عن التراث الموسيقي في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عندنا. وكان ـ ضمن عمله ـ مهتما بتوثيق الغناء الكويتي القديم. ومن أجل إتمام ما كان يقوم به أنه لقي الفنانة عودة المهنا، وتحدث إليها عن الفن الغنائي القديم بصفة عامة، وكان لا بـد له من أن يفعل ذلك لأنها ـ بالفعل ـ أول من ينبغي عليه أن يسـأله عن هذا الأمر في الوقت الذي كان الأستاذ أحمد يجري فيه بحثه.

تحدث الأستاذ عن لقائه بهذه الفنانة العريقة في أحد المجالس الخاصـة، فأعرب عن اهتمامه بمتابعة عمله على تدوين الإيقاعات الموسيقية الكويتية القديمة بأخذها من مصادرها الحية. وذكر أن من بين مصادره هـذه الفنانة الكويتية عودة المهنـا التي أمدته ـ كما قال ـ بثمانية عشر إيقاعا على الطار (الدف)، لم يكن قد سـمعها ـ من قبل ـ عن غيرها. ولذلك فقد كان يقول عنها: إنها أسـتاذتي، وذلك لأنها قد أتاحت له فرصة معرفة هذه الإيقاعات وتسجيلها، ولولاها لما تمكن من ذلك.

□ □ □

أما فيما يتعلق بالأمر الآخر المشار إليها فيما مر بنا من هذا الحديث فإني أسمح لنفسي بأن أكون راويا له، لأنني أرى أن معرفتي بهذه المرأة الكريمة تسمح لي بذلك. وهذا هو ما أردت أن أذكره عنها:

اسمها: جوهرة بنت معيوف المهنا، ولدت في سنة 1899م، وتوفيت في سنة 1984م، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم جدتها وهي عودة الذي تمسكت به إلى آخر عمرها. ولم يعد أحد يناديها باسمها الذي سميت به ساعة ولادتها وهو: جوهرة. ذكرت أنني كنت أتتبع نشاط الفنانة عودة المهنا منذ كنت صغيرا، وأنني أنا وأقراني كنا نتوقع مرورها مع فرقتها في المناسبات التي تسـتدعي مشـاركة هذه الفرقة بها عن طريق النشـاط الفني الذي يملأ أجـواء كل (فريج) تمر به بهجة وسعادة. ولا يغيب عن بالي سماع هذه الفرقة وهي تردد في صباح يوم أحد الأعياد وهي عائدة من سهرة أحيتها. وكانت تهتف قائلة:

حس السـهارى يوم مروا عليه
صبحيـــة العيـــد
نـوخ ذلولـه وقام يبكـي عليه
صبحيـــة العيـــد

وهذه أغنية لحنها من فن يدعى: العاشوري. كان يردد في مثل هذا المناسبات، وقد استمعت إليه مؤخرا بصوت الفنان الكبير عواد سـالم الذي كان يصاحب فرقة الفنانة عودة المهنا في كثر من أنشطتها الفنية.

ومرت الأيام، فعرفت هذه الفنانة معرفة مباشرة، وصرت أدرك كثيرا مـن الأمور التي تميزت بها من الناحيتين الشخصية والفنية، وألاحظ محبة الناس لها، فاستخلص من ذلك أن هذه المحبة لم تكن بسبب إجادتها لعملها الفني وإتقانها له فقط، بل لما جبلت عليه من طباع كريمة أشرت إليها فيما تقدم من هذا الحديث، وذكرت طرفا منهـا. وكانت ترعى باهتمام زائد أفراد فرقتها التي كان يطلق عليها اسم: العدة، فكان الناس يقولون عنها: هذا حفل تحييه عدة عودة المهنا، لأن الفرقة كانت تعد كل ما تحتاج إليه من أدوات موسيقية كان أهمها الطبل والطار (الـدف) وكان الطبل من الحجم الكبير تخصصت بالضرب عليه إحدى عضوات المشاركات، وهي الفنانة سلامة أم سلطان التي كانت تنفرد بمقدرتها على ذلك، فهي تجيد الإيقاع وفق ما يأتي به الغناء من ألحان. ولم تكن هناك آلات أخرى، غير أنني شاهدت وسمعت الفنانة عودة المهنا وهي تعزف على آلة العود، وكانت مستمتعة بذلك العزف مجيدة له. ولم أرها في غير هذه المرة على هذا الحال في مناسبة أخرى، على الرغم من أنني شـاهدتها ـ بعد ذلك ـ كثيرا. أما سر معرفتي الشـخصية بها، فذلك يرجع إلى الأيام التي كنت فيها مسؤولا عن إدارة تلفزيون الكويت اعتبارا من سـنة 1962م، وكان هذا الجهاز يستضيفها هي وفرقتها مرارا، ويسجل لها كثيرا من الألحان الشعبية التي عرفت بهـا. والتي تميزت هذه الفنانة بتقديمها لجمهـور هذا الجهاز من متتبعي الفنون التي تقدمها من خلال ما يقدمه من برامج. وكان التلفزيون ـ آنذاك ـ مهتما بعرض مختلف أنواع فنون التراث الشـعبي الكويتي، وكما كان يستقطب ـ إلى جانب فرقة عودة المهنا ـ كبار الفنانين الكويتيين من أمثال عبداللطيف الكويتي، وعبدالله فضالة، ومحمود الكويتي، وسعود الراشد وعوض دوخي وحمد خليفة ـ وغيرهم، وكان هذا من أسباب حفظ الغناء الكويتي القديم.

أما عودة المهنا فقد استمرت معرفتي بها زمنا طويلا بعد ذلـك، عندما انتقلت إلى العمل في وزارة التربية سنة 1965م، فلم تقطع صلتها بي، فكانت تتردد علي بين وقت وآخر، وأشـهد أنها في ترددها هذا لم تكن تطلب لنفسها شيئا مهما كان. ولكنها كانت تأتي إلي آملة في مسـاعدة بعض المحتاجين الذين أغلقت في وجوههم سبل العمل، فكانت تسعى لهم ـ عندي وعند غيري ـ في سـبيل تيسير أمورهم بقضاء ما هم في حاجة إليه. وكان همها الشاغل هو إيصال معاناتهم إلى حيث يجدون من يستطيع حل مشكلاتهم. ولقد كانت تقوم بذلك في كثير من المؤسسات، ولدى عدد غيري من المسؤولين رغبة منها في فعل الخير، وإدراك الأجر من الله عز وجل. ورفع أعباء الحياة عن هؤلاء الذين كانوا يعرفون فيها هذا المسلك الكريم فيذهبون إليها راجين عونها بعد أن عرفت بهذا العمل الكريم.

ولقد كانت إلى جانـب ذلك تفتح بيتها لكثير من الحـالات التي تحتاج إلى الرعايـة من فاقدي الأهل، فيجـد هؤلاء في بيتها ما فقـدوه، وما يفتح أمامهم سبل الحياة الكريمة من جديد، ثم إنها لا تترك هؤلاء الصغار إلى سبيلهم في الحياة إلا وقد كبروا وتعلموا وحصلوا على الأعمال التي تغنيهم عن الحاجة. وتكفل لهم الاسـتقرار والحياة الكريمة. وكم تكون فرحتها عندما تجد أبناءها هؤلاء الذين لم تلدهم، وقد صاروا ينعمون بالحياة مطمئنين إلى المستقبل.

□ □ □

هذه هي عودة المهنا، عاشت حياتها وهي تسعد الناس جميعا، صغيرهـم وكبيرهم، أحيت حفلات الزواج، وشاركت في الأفراح الخاصة والعامة، وأضفت على الرحلات الخلوية التـي يقوم بها الأهالي في الربيـع روحا من الأنس والسـعادة. ولكنها ـ مع الأسف الشديد ـ لم تنل من وطنها أي تكريم. ولم نسمع لها ذكرا منذ أن توفيت عدا بعض ما نسمعه من تسجيلاتها التي تذاع علينا في فترات متباعدة، ومن المعروف أن الكويت لم تتأخر ـ أبدا ـ عن تكريم أبنائها المبدعين المنتجين، ولكنها تأخرت كثيرا عن تكريم الفرق الشـعبية من أمثال فرقة عودة المهنا، ولسـت أدري سـبب ذلك. وبقي أن نقول إن هذه الأعجوبة في عالم اللحن والغناء والإيقاع، التي أمتعت الناس طوال السنين بفنها البديع، لم يتركها الناس إلى خالقها عندما توفيـت، فقد جن ذوو النفوس التي ركبها الحسد عندما رأوا إحدى بنايات شارع تونس قد سميت باسـمها، وأخذوا يتساءلون عن مواردها المالية فـي حين أن هذا الأمر لا يخصهم، وليس بمسـتغرب أن يكون لديها مال لأنها كانت تعمل طوال حياتها. وهم ـ مع ذلك ـ لا يدرون أنها لم تترك وراءها مالا لأنها كانت تنفق ما تملكه على المحتاجـين الذين يلجؤون إليها، لما عرفوا عنها من فعل المعروف.

ولقد جاء الرد على هؤلاء بعد فترة قصيرة من الزمن، فوجدنا الشركة التي كانت تمتلك هذه البناية قد باعتها إلى مالك جديد، استكثر على عودة المهنا أن تسمى بنايته باسمها فنزع الاسم، لكي يريح هؤلاء الذين لم يرضهم تكريمها، وبقيت الفنانة والأم عودة بلا تكريم من أحد. رحمها الله تعالى.

□ □ □

هذا، ولي كلمة أخيرة ذات دلالة على صلة تربطني بالفنانة عودة المهنا غير ما ذكرت، وهي أنها كانت أخت المرحوم محمد البراك من الرضاعة، وبذلك فهي عمة زوجتي، وهي بالتبعية عمة أولادي، وهذا أمر يسعدني، ويسعدهم.